النعش

قصة بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

يظهر انني املك ما لا يملكه الكثيرون من قدرة على التنبـــوء بالغيب .. « في هذه المرة ايضا لم يخطىء ظني . » فلم أكد اغلـــق باب العربة ورائي وافرغ من محاسبة السائق وانـزال حقيبتي علـى الارض حتى شعرت بانفاسه في ظهري . كان هو بعينه .. هل قلـــت بعينه ؟ اجل بعينه الوحيدة التي بقيت له ، ينظر بها نظرة جمـــود وتبلد ، فيها المسكنة والخبث والحقد والذل في وقت واحد ..

ـ عنك يا بيه ..

قلت في صوت يجمع بين السخط والدهشة : انت ..

واردت ان اعبر عن اشمئزازي من سحنته المغبرة التي قدر عليّ ان تكون اول ما يطالعني بعد غيبة طويلة عن البلد ، واصرخ في وجهه الداكن السمرة ، المعفر بالتراب ، الذي يسيل عرقا متسخا فـــي اخاديد وحفر غائرة ، واهتف في غضبي كيف يمكن ان تنشق عنـــه الارض في كل مرة ، وهل يملك من دون الناس انف كلب يشم رائحـة صاحبه عن بعد ، ام تستطيع عينه الوحيدة المحمرة ان تنفذ وراء الف حجاب كأنها عين عراف قديم ؟..

ولكنني لم اقل شيئا من هذا ، فقد احسست انه يفرض وجوده عليّ فلا استطيع الفرار منه ، وان عينه المسدودة تشارك في المؤامرة عليّ وترمقني خفية بلحمها الملتهب وفراغها المخيف الذي يوحـي بـــأن ضياع العين ليس الا نوعا من الوهم او خداع النظر او الخديعة .. ولكي ابتعد عن رائحة العرق المنبعثة من جلبابه القذر ، واتحاشـــى ابتسامته على زاوية فمه بدت لي اشبه بحشرجة ميت ، ونظرة من عينه تنطق بالشماتة والتبجح والاستهزاء .

قلت في عجلة : دع عنك .. ماذا تريد ؟

قال وابتسامته المتبجحة لا تزال تطل من التجويف المسدود الفـم المعـوج :

اوصلك يا بيه ..

زمجرت غاضبا : قلت دع الحقيبة في حالها ... خذ ..

ومددت يدي بورقة من ذات العشرة قروش كانت هي الفكة الباقية معي . ولكن يده لم تمتد لاخذها كما توقعت ، بل زادت الابتسامة حتى اصبحت لعنة أكاد اسمعها تصدم اذني .

قلت : مالك ؟ دائما طماع ؟..

قال وهو يرفع وجهه فجأة الى السماء كأنه يطلعها على ظلم فاضح او كأنه يراها لاول مرة :

ـ لا تكفي يا بيه .. الولد مات الصبح ومنتظر النعش ..

تذكرت لقاءه الاخير معي قبل بضعة شهور ، وتبينت الكذبـــة البشعة فصحت :

ـ ابنك .. ابنك .. هل يموت ابنك مرتين ؟

قال في تخاذل : امر الله يا بيه ..

صحت هائجا : لا تذكر اسم الله على لسانك .. الم تطلب فـــي المرة السابقة ان تشتري له كفنا ؟ واليوم تريد نعشا .. أيها الكذاب..

قال وابتسامته لا تفارقه : استغفر الله يا بيه .. الولد مـــات الصبح .. حتى تعال سعادتك واحكم بنفسك ..

قلت وقد ارتفع صوتي عما كان : كلكم كذابون .. هل تظن ان عندي كنز قارون ؟ هيا . ابحث عن كذبة اخرى وغر من وجهي ..

وانحنيت لارفع الحقيبة من على الارض .. ومضيت بضع خطوات واذا به يلاحقني متوسلا : يا بيه ربنا يحنن قلبك .. يرضيك الولـد يعفن ؟. طيب كمل لي على ثمن النعش .

بدا صوته يتحشرج.. خيل اليّ انه يئن كوحش يموت .. ولم يكن تأثري لبكائه الخادع هو الذي جعلني استدير اليه بل رغبتي في التخلص من وجوده البغيض .. مددت يدي في جيبي فاخرجت ورقة من ذات الجنيه لم اجد معي اقل منها .. ووقفت امامه وانا اتميز غيظا واصيح :

ـ ليكن في علمك ان هذه آخر مرة .. واذا كذبت عليّ بعد هذا فساعرف شغلي معك .. يظهر ان الذوق لا ينفع معكم ..

كانت عينه الوحيدة مستغرقة في الورقة الخضراء .. وغاظني الا اجد فيها دمعة واحدة .. وقبل ان امد له يدي سألته مهددا :

اين تسكن ؟ ..

قال وهو يشير بذراعه الى ما وراء شريط السكك الحديدية :

ـ في عزبة الفجر يا بيه .. طول عمري هناك ..

قلت وقد ازداد سخطي : في اي شارع ؟

قال وابتسامته المتبجحة تزداد اتساعا : شارع ؟ والنبي قلبك طيب يا بيه ..

صحت وقد نفد صبري : اخرس .. اريد ان اعرف العنوان لاستدل عليك .... سازورك لاعرف كذبك ..

قال وهو يمد يده لياخذ الجنيه ثم يقبض عليه في سعادة :

ـ تزورني ؟ تشرف والله يا بيه .. اسأل سعادتك عن ابراهيـــم الاعور والف يدلك ..

نظرت اليه وانا احس ان وجهي سينفجر من الغضب .. ثم رفعت الحقيبة ومضيت وهو ما يزال يشيعني قائلا :

ـ والنبي تشرف يا بيه .. تنور العزبة كلها ..

كان ذلك في صباح عودتي الى البلد في اجازة قصيرة .. وقد تشاءمت لهذه البداية التي جعلتني اواجه بالشحاذ الاعور وولده الميت ونعشه الذي يريد شراءه . ولكنني سرعان ما نسيت هذا كله عندما سلمت على ابوي واطمأننت على الصحة والاحوال . اقول اطمأننت وفي قولي مبالغة .. فقد كانت امي طريحة الفراش تعاني من الروماتيزم القديم الذي يهاجمها دائما في الشتاء .. اما ابي فلم يكد يراني حتى بدأ يشكو من كساد الحال وغلاء المعيشة وغش الفلاحين .. وقد فهمت من ذلك اشارة خفية بأن عليّ ان احمل عنه بعض أعبائه فأزور الفيط واحضر قسمة القمح وأباشر نقل المحصول .. غير انني لم اكن على استعداد للمشاركة في شيء .. وافهمت ابي أن وقتي ضيق ، وانني مكلف ببحث لا بد من اتمامه قبل نهاية الاجازة القصيرة ، وان كنت قد وعدته بالمرور على الحقل والاطمئنان على الاحوال .. لم استطع بالطبع ان اقول له شيئا عن موضوع هذا البحث الذي عزمت ان اعكف عليه ، بل مضيت افرغ حقيبتي من محتوياتها .. وكانت لا تزيد عن بعض الملابس الضرورية حشرت بينها بعض محاورات افلاطون ..رتبت الكتب على مائدة صغيرة وضعت في الصالة .. واخرجت المحبرة والاقلام والاوراق وتهيأت للعمل .. او هكذا تعمدت ان افعل لكي يعرف الجميع انني لا املك دقيقة واحدة اضيعها .. أحضرت لي الخادمة الصغيرة كوبا من الشاي .. رحت اقلب في اوراقي وانا اسمع صوت امي تئن من الالم وتدعو لي بالنجاح .. اما ابي فقد تناول عصاه وشمسيته وقال قبل ان يغادر البيت انه سيسرح الفيط والمعين هو الله ..

كان الموضوع الذي يشغلني عن « خلود الروح » .. والحق انني لم اكن في حاجة الى تقليب الكتب لاعرف مزيدا عنه . فقد عشت الشهور الماضية مع الحكيم الالهي بكل عقلي ووجداني .. وملكت براهينه وحججه على نفسي ، حتى صرت أرددها في نومي ويقظتي وازداد بها اقتناعي مع كل نفس يتردد في صدري ..

وكنت قد مهدت للبحث تمهيدا كافيا .. وحددت المواضيع التي ساحتاج اليها من المحاورات .. بحيث حضرت الى البلد وفي عزمي الا استسلم لسحر القراءة .. بل أجمع شتات الموضوع وادونه في فترة قصيرة .. كانت احاديث سقراط مع اصحابه لا تزال تتردد في اذني .. وكنت اجد متعة في ترديدها لنفسي .. حتى خيل اليّ انني انا الذي اكتشفتها ولم يبق عليّ الا أن اقنع الناس بها .. بل لقد تأكدت ـ لطول ما قرأت في فايدون وفايدروس والجمهورية ـ أن خلود الروح امر واضح وبديهي ، وان الحكيم المتواضع العزيز قد اجهد نفسه اكثر مما ينبغي في اثبات شيء لا يصح لانسان يستحق هذا الاسم ان يساوره الشك فيه لحظة واحدة .. ومع ذلك فقد رحت استعيد البراهين التي ساقها على خلود الروح .. واعجب بيني وبين نفسي كيف احتاجت لمن يكتشفها ويدلل عليها ..

لقد اعجبني قوله ان جوهر الروح هو انها مبدأ للحركة ولذلك فهي خالدة الى ما لا نهاية .. واننا نحمل في انفسنا معرفة فطرية يحييها التذكر فينا من جديد .. ولا بد ان تكون الروح قد حصلت على هذه المعرفة في وجود سابق على الوجود الارضي .. كما لا بد ان يقابل هذا الوجود السابق وجود لاحق بعد الموت .. وان النبلاء والشرفاء من الناس كان قديهم دائما شوق الى الحياة في العالم الاخر .. ولا يمكن ان يكون هذا الشوق مجرد وهم او خطأ او تمنّ ما دمنا نجد الكثيرين يشتركون فيه على مدى الاجيال .. اعجبني كل هذا .. ولكن ما زاد اعجابي هو تصوره للروح حين كانت تعيش في مكان يعلو فوق السماء حيث تتأمل الحق والخير والجمال وتطير بجناحيها في موكب الارواح الاخرى الذي يقوده زيوس سيد البرق والرعود .. يا لهذه الروح البسيطة الصافية الجميلة .. انها عربة ذات جوادين مجنحين .. يقودها سائق له جناحان .. تصعد وتصعد مخترقة السحب والنجوم والشموس حتى تمتزج بعالم المثل وتتآلف مع نفوس الالهة والملائكة والعباقرة .. أليس هذا كله من نصيب الفلاسفة الذين يقهرون عناصر الاضطراب والجموح في نفوسهم حتى يرتفعوا بها الى موكب زيوس العظيم ؟.. اليس من حقي ان اكون سعيدا اذ ارى نفسي وهي تسوق جواديها المجنحين وتركض في موكب الخالدين .. هناك فوق السحب والافلاك .. وفوق المتاعب والهموم .. وفوق الفيط والمحصول والفلاحين الذين يغشون ابي .. وفوق الروماتيزم والكبد وكل ما يجعل امي الان ترسل انينها الذي يزعج تأملاتي ..

انتبهت على صوت الخادمة تنادي عليّ .. لم أكن قد سمعتها وهي تفتح الباب الخارجي فرفعت رأسي عن اوراقي وسألتها ضجرا عما تريد . قالت ان أبي يريد ان اسرح الفيط .. صرخت فيها اننـي مشغول .. ورحت العن واسب لان احدا لا يقدر أهمية ان يشغل الانسان نفسه باثبات خلود الروح . ولكنها وقفت عاجزة امامي .. واكتفت بلفت انتباهي الى رأس كان يطل من الباب ويبدو ان صاحبه كان يقف هناك في انتظاري .. وبجانبه حمار يهز أذنيه ويطل هو ايضا من خلال البـاب .

لا ادري لماذا تذكرت « الاعور » فجأة عندما وضعت قدمي على عتبة الباب .. لم اتذكره هو نفسه في الحقيقة .. بل خطر على بالي ولده الذي قال لي انه مات في الصباح او على الاصح ذلك النعش الـذي اراد ان يشتريه .. بالطبع لم يكن في منظر الفلاح الذي ارسله ابي ولا في الحمار الذي كان معه ما يثير هذه الصورة في نفسي .. فلعله احساس مباغت بالندم او الحزن اعتراني حين وضعت قدمي على ارض الشارع وجعلني اتهم نفسي بانني قد ظلمت ذلك الاعور .. لا بل ظلمت جثة صغيرة لا ذنب لها سوى ان هذا العاطل المتسكع قد تسبب يوما في خروجها الى الحياة ، وربما تسبب ايضا في خروجها منها ..

سرت الى جانب الفلاح أدمدم بكلمات معتادة عن الصحة والاحوال ومحصول السنة والعيشة في مصر ، وغيرها مما لا يعطل الانسان عن التفكير في الخلود .. كانت احدى محاورات افلاطون في يدي ، ولم اشأ ان اركب الحمار الذي بدا لي مسكينا وهزيلا الى حد مخيف ، لا سيما عندما قفزت الى خيالي صورة الجوادين المجنحين الذين يخطران في امواج النور العلوي على انغام الكواكب الخالدة .. وقضيت ساعات في الحقل .. لا اشك الان انني قضيتها بجسدي وحده لا بروحي التي كانت تنطلق مرة بعربتها المجنحة في موكب الآلهة وترقد اخرى عند جثة طفل ممدد على فراش قذر ، في بيت حقير ، امام اب كريه وام لا اعلم عنها شيئا .. ولا ادري الان كيف استطعت ان اتخلص بسرعة من ابي والفلاحين والمحصول وأعود وحدي على الطريق الموصل الى عزبة الفجر .. كان الاحساس الحزين قد انعقد كالسحابة الكثيفة في نفسي حتى اصبح نوعا من الشعور بالاثم يزيدني مع كل خطوة رغبة في التكفير عنه باي ثمن .. وكيف لا يعذبني هذا الشعور وأنا الآن اجوس خلال طريق قذر بين بيوت قذرة واحاول ان اتصور الروح الصغيرة التي غادرت الجسد الصغير وراحت ترفرف بجناحيها الصغيرين ؟ ها أنذا اقترب من العزبة المجهولة .. وأسأل اناسا مجهولين عن بيت مجهول يضم جسدا مجهولا .. اقتربت من العزبة التي تبدو من بعيد كأكوام من القمامة رصت بجانب بعضها البعض ، وتزكمني رائحة العفن والمرض والجوع والهوان .. أسأل العابرين فيبتسمون في تعجب واشفاق او يقفون ليردوا عليّ في تهيب واحترام لا يستحقه حتى السلطان .. وتغوص قدمي في الوحل والعفونة وحفر الماء الآسنة وبقايا الصغار والكبار ، وتغوص عيني في البيوت او ما يمكن تسميته بالبيوت : أبواب مفتوحة كأفواه كهوف او وحوش منقرضة تفضي الى ظلام في الداخل لا يظهر منه الا اشباح آدميين : أمهات وآباء في خرق قذرة ممددين كالموتى في انتظار الاكفان واللحود واطفال تجري او تصرخ او تلعب في التراب والطين او تأكل لقما تحمل من الذباب ما يزيد عن حجمها ..

وجماعات من النساء والشيوخ والرجال تداخلت أجسادها واطرافها في بعضها واختلطت وجوهها حتى بدت وجها واحدا يصرخ بالمرض والذل

والشحوب ، تحاول بالاصوات العالية او الضحكات المفتعلة او الكلمات البذيئة ان تذود عن نفسها سام الفقر والذل والموت والاختناق .. وانا اسال ولا اكف عن السؤال عن بيت ابراهيم الاعور .. وكلما وجـدت احدا لا يعرفه سالت عن ماتم صبي او طفل صغير مات في الصباح .. الجميع يشفقون عليّ ويبتسمون لي في وقت واحد .. ايتها الجثث الحية .. هل تعرفين شيئا عن خلود الروح ؟.. ايتها الحفر الطينية التي لم يدخلها كتاب تشرق عليك الشمس كل يوم لكن لا يدخلك النور .. تهب عليك نسمات المساء ولكن لا تعرفين الراحة . تطل عليـك النجوم ولكن لا يبدد ظلامك الحجري شعاع نجمة ولا قمر ولا مصباح .. وانت يا طفلي المسكين الذي ظلمته في اول النهار .. يا واحدا مـن عشرات الاطفال الذين يجرون حولي باجسادهم المريضة العاريـة .. وشعورهم المهملة التي تاكلها اسراب القمل والبراغيث .. وعيونهـم المنطفئة التي تفترسها الاف الذباب لتصبح شاهدا اثريا على مـرض تختص به من بدون العالمين .. هل تعلم يا طفلي البائس انني اجوس في مملكتك السفلي .. في عالمك الذي اعرض عنه التاريخ .. وفي يـدي كتاب يطوي كل البراهين التي تحبها عن خلود الروح ؟ ايتها الـروح الصغيرة التي تركت هذا العالم منذ ساعات .. اين انت الان والى اين ترفرفين ؟.. هل ستنضمين بعربتك الصغيرة الى موكـب الارواح الخالدين .. وتركضين بجواديك الصغيرين المجنحين الى جانب الشعراء والاولياء والقديسين ؟ ام يا ترى ستنزوين هناك ايضا في عزبة حقيرة .. في حارة حقيرة .. في بيت حقير .. يملأه الذبـاب والعفن والفقر والخوف في كل لحظة من الجوع والموت والفضيحة ؟ هل ستنسين الاب المتسكع الشحاذ والام المريضة السليطة اللسان ورفاق اللعـب المنسيين من الارض والسماء واللقمة القذرة بلا غموس والثوب المثقل بالرقـع والثقوب والحجرة المظلمة الباردة التي علمت جسدك طعم القبر قبل أن يدخل فيه ؟..

ايتها الروح الصغيرة المسكينة ! يقولون ان الخلود هو أن تنتصر على الموت في اثناء الحياة وبعد الحياة . لكن الموت انتصر عليـك والبؤس قهرك وانتقم منك .. من يجرؤ ايتها المسكينة الصغيرة مع كل هذا البؤس ان يفكر في خلود الا ان يكون خلود البؤس نفسه ؟

ايتها المحاورات الغادرة في يدي .. يا براهين الخلود الكئيبة .. يا براهين الخلود المستحيلة .. انت ايتها الكتب الذليلة جميعا .. ماذا بوسعك ان تفعليه امام هذا البؤس كله ؟؟ كل هذا البؤس الذي يصدم عيني ويزكم انفي ويخجل جسدي ويذل روحي ؟

لكن ربما اكون قد بالغت .. فها انذا اقترب من بيت الاعور .. انه في نهاية هذه الحارة .. اول بيت على اليمين كما اشار لي الحمال العجوز الذي سالته الان .. هل يكون الاعور قد بالغ ايضا في كلامه ؟ ايكون من حظي ان اجدك يا طفلي المسكين حيا لا تزال .. أم مسجى على الفراش القذر او على الارض الباردة ؟ وماذا لو وجدت النفس يتردد في صدرك وعينيك تطلان عليّ من وراء الصراع مـع الملاك .. فتستنجدان وتبكيان ؟ ماذا افعل عندئذ ، ماذا افعل ..؟هل اتقدم منك يا طفلي الحزين .. لابعد عنك قدرك التعس واتولى عنك الصراع مع الملاك .. ساقول لك انهض .. انهض يا لعازر الصغير .. لست أنـا السيد ولا استحق ان الثم اظافر قدميه .. لكنني ساقول لك : انـت حبيبي الذي نام .. وانا جئت لاوقظك .. ساطرد اباك المتسكع وامك الوقحة .. ساخلصك من البيت القذر والحارة القذرة والبلدة القذرة. ساسوق عربتك المجنحة الى بلد اخرى فيها الحب والنور والحكمـة والحياة . ساخر راكعا عند نعشك واغسل قدميك بدموعي واقول لك انهض وهلمّ خارجا من هذا البيت الكئيب .انهض يا امل بلدك يافارس اهلك .. انهض انهض هلمّ خارجـا من هذا العالم القذر .. هـذه العزبة القذرة هذه الحارة القذرة .. هذا الجحر القذر الملعـون .. ها هوذا بيتك القذر يقترب .. فهل يا ترى ستسمع صوتي الباكي ؟ هل ستنهض من نعشك الصغير ؟. ام ان اباك لم يشتر نعشك ، لم يجد المال الذي يكفي ليشتريه .. وأصبحت شريكا معه في خيبة أملك ؟

لم أجد ضرورة لطرق الباب .. فقد كان مفتوحا .. يطل عـلى ممر طويل يكفي الضوء القليل الذي يتسرب اليه من الشارع ليكشفعن قبحه وفقره ويبين للعين المدققة عن بعض الاجساد الممددة فيـه .. تنصت قليـلا قبل ان اصفق بيدي ..فلم يكن هناك اثر للصوات المعهود ولا حتى لبكاء صامت او دمدمة بآيات القرآن .. وقبل ان اصفق بيدي او انادي سمعت خلفي صوتا عاليا يقول :

ـ ضيوف يا اولاد .. كلم سعادة البيه يا ابراهيم ..

كان هو الحمال العجوز يلهث من الجري .. وقد سبق خطواتي الحريصة المترقبة وجاء يعلن الخبر لسكان البيت .

وما هي الا لحظة حتى رايتني وجها لوجه امام ابراهيم .. كانت قصبة الجوزة في فمه .. والدخان الاسود يخرج من انفه ويحجب عني وجهه اللعين ..

ـ سعادة البيه ؟ خطوة عزيزة والله ..

قلت باشمئزاز . جئت اقول البقيـة في حياتك ..

ناول الجوزة ليد لم اتبينهـا في ظلام الجحر الملعون .. واقبـل عليّ يبتسم ابتسامتهالتي تشبه حشرجة ميت : تفضل يا بيه ..تفضل. هاتي الحصيرة يا فاطمـة ..

قلت محاولا ان احافظ على اتزاني وان اشكره في نفس الوقت :

ـ جئت لارى النعش واعزيكم .. هل كفت الفلوس؟

رفع يديه الى السماء في حركة اثارت سخطي .. ومد ذراعه يبحث عـن يـدي ليقبلهـا فسحبتهـا متضايقا وانا اقول :

ـ أيـن النعش ؟..

قال متعجبا (وظهرت امراة طويلة نحيلة وراء ظهره لاحظت شعرهـا الاشعث الذي تحاول ان تغطيه بشال قذر)

ـ نعش ؟ الله يعمر بيتك يا بيه .. تفضل نعمل شاي ..

زاد غضبي لبروده ووقاحته .. وحدثتني نفسي ان اصفعه علـى وجهه لولا ان امسكت نفسي :

ـ انا جئت لاطمئن على الماتم لا لاشرب الشاي ..

تدخلت المراة الطويلة الشاحبة التي ظهرت الان على عتبة البـاب وقالت في صوت واحد مع الحمال العجوز :

ـ ماتم ؟ ماتم ايه لا سمح الله يا ابراهيم ؟..

عرفت الان اننى وقعت في فخ حقير .. وتبيـن لي بمـا لا يقبـل يقبل الشك ان هذا الاعور قد كذب عليّ مرة اخرى ..

وانفجرت صائحا .. ورفعت يدي التي كانت لا تزال تقبض علـى محاورة افلاطـون قائلا في صوت كالرعـد :

ـ كذبت عليّ يا أعور ؟ هكذا تسرق الناس يا كلب ؟

رفع صوته الاجش وعوى ككلب مجروح .. وجثا يقبل ركبتي وقدمي فزادني هذا سخطـا على بشاعة موقفي ومهانته ..

صحـت :

ـ سابلغ عنك .. اللبلة تبيت في السجن ان شاء الله ..

عاد يعوي بصوته الاجش البغيض :

ـ في عرضك يا بيه .. انا غلبان والله .. كلنا غلابة ..

صرخت فـي وجـهه :

ـ كذاب .. كذاب .. قل هذا في المركز ..

واستدرت غاضبا بعد ان خلصت قدمي ويدي منه ..

كان صوته الغليظ ما يزال يتبعني وهو يقول :

ـ كلنا على باب الله يابيه .. طيب وشرف سعادتك لو قلنـا الحق نجوع .. يعني يرضيك نكذب ولا نجوع ؟..

القاهـرة

عبدالغفار مكاوي